والفائدة الثانية من درس القبطيَّة انَّها كما سبق مفتاحٌ لا غنًى عنهُ لمن اراد مطالعة الكتابات الهيروغليفية القديمة وما اشتقَّ منها من الخطوط الهيراتية والعاميَّة. وأحرِ بابناء الشرق ألَّا يدعوا الاوربيين وحدهم يجمعون هذه الكنوز الثمينة من بلادهم دون ان يأخذوا منها نصيبهم. قال العلامة بيرون في مقدِّمة معجمهِ القبطي اللاتيني: « انَّ قصدنا بوضع هذا المعجم الواسع ليس فقط تسهيل درس القبطية بل ايضاً ارشاد الدارسين الى مطالعة دفائن آداب المصريين الاقدمين فان معرفة اللغة القبطية اقرب وسيلة الى هذه الغاية الشريفة. ولولا خوف الاطالة لأبدنا قولنا هذا بالبراهين القنعة وبيَّنَّا جهل من ينكرهُ. واقوى دليل على ذلك انَّ معنى الالفاظ الهيروغليفيَّة يبقى مبهماً ملتبساً الى ان يُزيل شبهتهُ اللفظ القبطي لان الكتابة الهيروغليفية لا ترسم في الغالب غير الحروف الصحيحة (كالعربية اذا جُرِّدت من حروف العلة والحركات) فيمكن ان تُقرأ الكلمة الواحدة على طرق مختلفة مثال ذلك حرفا nz (نج) اذا وجدتهما بالحروف الهيروغليفية لا يمكنك ان تقضي بمعناهما الصحيح الَّا ان تراجع في المعجم القبطي تركيبهما مع حروف العلة ومعانيها المختلفة فتجد naz (ناج) و ncz (نَيج) و nicz (نِيج) و noz (نَوج) و nouz (نُوج) فتختار ما يوافق القرينة

هذه نبذة وجيزة كتبناها لافادة الشرقيين وغاية ما نتمنَّاهُ ان تبعث فيهم لاسيما الاقباط نشاطاً جديداً لدرس لغة شريفة انكبنا نحن ايضاً على درسها حبا بخيرهم

القضاء والقدر

نظرٌ فلسفي للاب لويس شيخو اليسوعي

صدق الهلال (ع ٢٠: ٦٤٧) اذ كتب في مقدِّمة مقالتهِ عن القضاء والقدر انَّ « لعلماء الكلام وغيرهم ابحاثاً طويلة ومناظرات عنيفة في تعريف القضاء والقدر وهم لا يزالون في مثل ذلك الى اليوم » ويا ليت كاتب هذه الاسطر مع علمهِ بحرج المقام تحاشى ركض جوادهِ في ميدان لم يثبت فيهِ قدم الفطاحل من قبلهِ. وكنَّا وددنا نحن ايضاً ان نحايد هذه المسئلة وفيها مظنَّة عثار لو لم يحوجنا الى ذلك صاحب الهلال وهو قد دسَّ في كلامهِ مبادئ تفتح للشرِّ والفساد باباً رحباً ولعلهُ لم يفعل ذلك عمداً الَّا انَّ

القراء لا يحكمون على النيات بل على ظاهر منطوق المعنى

هذا وليس مرادنا هنا ان نتعقّب آثار الهلال في كل ما كتبهُ ونفرز بين صحيح قوله وسقيمه فانّ ذلك يقتضي مجلداً بل مجلدات ضخمة لما لمع اليهِ جناب الكاتب من المباحث العديدة في مطاوي مقالتهِ وانما نكتفي بتدوين اصدق ما جاء في كتب الفلاسفة عن القضاء والقدر وتطبيق ذلك على منطوق العقل ثم نتخطّى منهُ الى بيان ما شطّ فيهِ الهلال

تعريف القضاء والقدر والعناية والتدبير

القضاء اسم مصدر لقولك قضى الامر اذا حكم فيهِ وفصل. وهو في عرف اهل الكلام الحكم الفصل الذي حكم بهِ الله عزَّ وجلّ منذ الابد في كلّ مخلوقاتهِ وجميع اعمالها على مقتضى طبائعها. واليهِ يرجع تعريف الجرجاني حيث قال انَّ « القضاء عبارة عن الحكم الكلّي الالهي في اعيان الموجودات على ما هي عليهِ من الاحوال الجارية في الازل الى الابد »

امّا القدر فهو ترتيب الله للعلل الثانية وسَوقهُ اياها الى المعلولات المقصودة منهُ تبارك وتعالى فيحصل من ذلك ان في القدر امرَين احدهما ترتيب العلل الثانية من حيث وجودهِ في الله ويقال لهُ العناية وهو بهذا الاعتبار ازلي كالذات الالهية. والامر الآخر هو سَوق هذا الترتيب الازلي وتنفيذهُ في المخلوقات بحيث تُوجَّه جميعها في اوقاتها الى الغاية القصوى وهو من هذا القبيل زماني ويدعى تدبيراً

تقرير المبادئ الفلسفية في هذه المادّة (١

المبدأ الاول لمّا كان الله عزَّ وجلّ هو العلة الاولى لكلّ المخلوقات فمن المستحيل ان يحدث شيء في العالم بغير قضاء التدبير الالهي. قال الغزالي: ليس من شيء في العالم قليل او كثير صغير او كبير زيادة او نقصان راحة او نصب صحّة او وصب الّا بحكمتهِ تعالى وتدبيرهِ ومشيتهِ. . ما شاء كان وما لا يشاء لا يكون ولا يردُّ مشيئتهُ شيء. . وجاء في سفر استير (١٣ : ٩) : « ايها الرب القادر على كل شيء. كلُّ شيء في طاعتك وليس من يقاوم مشيتك »

(١) راجع الخلاصة اللاهوتية للقدّيس توما. ترجمة السيد الفضال المطران بولس عرّاد (١ : ٢٩٢ و ٣ : ٥٨٥ و ٣ : ١٢١ وفي هذه الفصول يبحث شمس المدارس عن عناية الله وتدبيرهِ وعن القضاء والقدر

المبدأ الثاني انَّ الله ازلي كما أنَّهُ هو العلة الاولى. فاذا قضى بامر وقدَّرهُ فذلك القضاء والتقدير يكون بلا شكّ منذ الازل ولا يمكن ان يحدث فيهِ تغيير البتة

المبدأ الثالث انَّ الله مع كونهِ العلة الاولى للكائنات والقاضي باعمالها فهو ليس بالعلة الوحيدة بل اتَّخذ في المخلوقات عللًا ثانيــة عديدة لها آثار عجيبة تبرزها تحت قيادة الله وتدبيرهِ الــامي. قال الشيخ محمد البكري الصدّيقيّ:

لا تنظرنَّ لغير الله في سبب فالله يفعــلُ والاسبابُ آلاتُ
فهِ في الخلق أطاف لقد خفيتْ غارُ فيهــا العقول الجوهريأتُ

المبدأ الرابع ولمَّا كانت المخلوقات منها ناطقة حرَّة بالارادة ومنها غير ناطقة فلا بُدَّ انَّ يدبّر كلّ مخلوق حسب طبيعتهِ

المبدأ الخامس المخلوقات غير الناطقة لا تدرك الغاية ولا ما يأتيها الى الغاية لخلوّها من العقــل ومن ثمَّ فقد اقتضى الامر ان يرشدها الخالق الى افعالها سواء كان ذلك بجواسّها الطبيعيَّة اذا كانت من الجماد والنبات او بمشاعرهــا الخمسة وقوَّتها الوهمية اذا كانت من الحيوانات والبهائم

المبدأ السادس امَّا المخلوقات الناطقة التي زيَّنهــا الله بقوَّتي العقل والارادة فانَّهُ عزَّ وجلَّ مع كونهِ يحرّكها اجمالًا الى طلب السعادة ويساعدها في ابراز كلّ افعالها لا يدفعها اضطرارًا الى العمل او الحيدة عنهُ ولا يقسرها على اصطناع امر دون غيرهِ وانما الارادة بناء على القوَّة الممنوحة للانسان منهُ تعالى تحرّك ذاتهــا من تلقاء نفسهــا ويمكنها ان تنزع الى الشيء او ترعوي عنهُ وتطلب امرًا من الامور او تختار غيرهُ على حدّ سواء

المبدأ السابع اذا نزع الانسان بحرّيتهِ الى ما فيهِ رضى خالقهِ استحقَّ بفعلهِ ثوابًا يجازيهِ الله عنهُ. واذا عدل عن طريقة الصلاح الى ما فيهِ سخط الخالق استوجب العقاب على ما اجترحت يداهُ من الشرّ

المبدأ الثامن هــذا وانَّ الله مع حرّيَّة الانسان التامَّة في اختيار الامور عالم حقّ العلم بما سيصنعهُ العبــد وليس في سابق علمهِ تعالى ما يضطرُّ العبد على الفعــل كما انَّ علمي الســابق بما سيأتيهِ بعض اصدقائي لا يعيق حرّيَّة هذا

الصديق. وهَبْ انَّ ارادة العبد اختارت عكس ما اختارتهُ لكان الله سبق وعلم ذلك علماً لا ريب فيهِ لاسيما انَّهُ تعالى يعرف الانسان فوق معرفة الانسان لنفسهِ ولا يجهل شيئاً من طباعهِ وامياله والاحوال التي سيتقلَّب فيها

النتائج المتفرِّعة من المبادئ السابقة

هذه المبادئ الثانية تحتوي خلاصة ما يمكن اثباتهُ عن قضاء الله وتقديرهِ للامور دون مسّ حرِّيَّة الانسان فمن ركن اليها نجا من ضلالين عظيمين: ضلال الزنادقة الذين ينكرون على الله سبحانهُ وتعالى السلطان المطلق في الكون والعناية التامَّة بكل المخلوقات وتدبيرها كما يشاء. وضلال الجبريَّة الذين ينفون الفعل عن البشر ويضيفونهُ الى الخالق دون المخلوق فيكون الله على زعمهم الباطل هو عامل الخير والشرّ بواسطة العبد. تعالى الله عمَّا يقولهُ الكافرون

وما قلناهُ عن قضاء الله وحرِّيَّة الانسان لا تناقض فيهِ لأنَّهُ عزَّ اسمهُ لم يقضِ بوجود كلّ الكائنات واعمالها حتى قضى ايضاً بحرِّيَّة الانسان فيميل دون اضطرار الى الخير او الشرّ. وذلك بكلّ حكمة لانَّ الله اراد ان يخلق في الكون طبيعةً تسعى في خدمتهِ طوعاً لا قسراً لينال بذلك مجداً لم يَنَلهُ من الطبيعة لو اضطرَّها الى العمل خيراً كان او شرًّا

والعقل السليم يفتي بتوافق هذين الامرَين فانَّهُ يبيّن صريحاً انَّ احكام الله لازية لا مردَّ لها وانَّ الانسان مع ذلك سيِّد عملهِ يتصرَّف فيهِ كيف شاء. وانَّ القدر لا يحوجهُ على اتيان خير او شرّ ولذلك ترى الانسان اذا عمل الصلاح فرح بصنع يديهِ وان ترع الى الطلاح لا يلوم الّا نفسهُ

وهذا الامر لا يصحُّ فقط في اختيار الانسان للخير او الشرّ لكن في امور اخرى كثيرة يمكنهُ ان يتصرَّف فيها تصرُّف الرجل الحكيم الفطن او تصرُّف الجاهل فاذا آثر الجهل على الحكمة ونتج عن فعلهِ نتائج سيئة فلا ينسب ذلك الى القدر الّا ظلماً. قال الشاعر:

وعاجزِ الرأي مضياعٍ لفرصتهِ حتَّى اذا فات امرٌ عاتب القدرا

وهذه امثلة نضربها لك من شأنها ان تكشف جليًّا عن الحقيقة. دونك مريضين مصابين بالطاعون يرضى الواحد ان يطعَّم بلقاح يرسين فيشفى والآخر يأبى اللقاح فيموت

أفيُقال ان الموت كان مقدَّرًا للثاني دون الاول أو ليس الكل ينسبون الى تهامل الثاني سبب موته. او خذ رجلين تاجرين يركن احدهما الى الدعة والراحة فيفتقر ويتضوَّر جوعًا ويسعى الآخر بطلب رزقه فيحصل على الغنى أفيستطيع الاوَّل ان يقول أنهُ قُدِّر له الغنى والثاني قُدِّر له الفقر. او ليس الاحرى ان ينسب الغنى لجدّ الاوَّل والفقر لغفلة الثاني. وقس على هذين المثلين

وما يشهد بصحَّته العقل يؤيدهُ اتفاقُ كلّ الشعوب التي وضعت سننًا لعقاب المآثم فان كان الله هو قدَّر هذه الاعمال فحمل عليها اصحابها دون ارادتهم أفليست هذه السنن جائرة ظالمة

بل كيف يستطيع الله ان ينهى عن امور قدَّرها منذ الازل ولا مناص للانسان من اجتراحها. وان عاقب الانسان بذنوب اتاها اضطرارًا أليس الله ظالمًا بل هو أولى بالعقاب من العبد. وكلُّ هذه النتائج السيئة لا يقولها غير الملحدين الكفرة صان الله العالم من شرّهم. ومصداقًا على قولنا نأتي هنا بكلمة حسنة وردت في كتاب الخلاة لبهاء الدين العاملي (ص ٧) قالها علي بن ابي طالب وكان سُئل عن القضاء والقدر فاجاب: ان كانت المعصية حتمًا كانت العقوبة ظلمًا

خطأ الهلال

فبعد هذه المقدَّمات لا يصعب علينا ان نبيّن ما وهم به صاحب الهلال. ورأينا في مقالته اجمالًا انها مشحونة بالمزاعم المتضاربة والاقوال المتباينة التي تدلُّ صريحًا على انهُ اطلق عنان قلمه في مادَّة لم يدرك معاضلها

واوَّل ما نأخذهُ على كاتب هذه المقالة انهُ استعمل في مدارج كلامه لفظتي القضاء والقدر بمعاني مختلفة فتارةً يأخذهما بمعنى حكم الله في خلقه وتارةً بمعنى علم الخالق باعمال المخلوقات وحينًا يريد بهما الحوادث الطبيعيَّة التي ليس للانسان فيها امر او تأثير وطورًا يفهم بهما اعمال البشر الصادرة باختيارهم وآونةً يقصد اعمالهم الاختياريَّة في السبب وغير الاختياريَّة في النتائج. فكيف لا يزيغ عن الصواب من يخبط هذا الخبط ولا يميّز بين امور تختلف عن بعضها اختلاف المشارق عن المغارب

ونأخذ ثانيًا على صاحب الهلال انهُ نكر على الله سبحانهُ وتعالى القضاء والعناية في امور كثيرة. وهو لعمري قولٌ لا يأتي به غير الملحدين. من ذلك انهُ نفى (ص ٦٥٤

و ٦٥٥) كون التربية والتهذيب واعمال العقل واقعة تحت قضاء الله وتقديره. وهو قول شطط يردُّهُ المبدأ الاول الذي قدّمناهُ حيث قلنا انهُ لا شيء في العالم عن حكم الله وقضائه. فما معنى قول صاحب الهلال بعد ذلك (ص٦٥٤): « بانها (اي التربية) ليست عاملاً خارجيًا. بل هي من اعمال العقل وتكاد تكون اختيارية. . . وانها ليست من العوامل الازليَّة التي يصحّ ان يقال عن نتائجها ازليَّة بل هي مقاومة لتلك العوامل » ثم شرح ما يريد بالتربية فقال (ص٦٥٥): « ونريد بالتربية كلّ الوسائل المؤدية الى اصلاح شؤون الهيأة الاجتماعيَّة. . . اهمُّها التعليم بانواعهِ كالتعليم الطبيعيّ والدينيّ والادبيّ والسياسي. . . ووضع الشرائع. . والتدريب على الصنائع. . . وغيرها »

فان اراد كاتب الهلال من هذا القول السابق انّ الانسان بناء على ما آتاهُ الله من الحرّيَّة يمكنهُ ان يتصرَّف بكثير من اعمالهِ وانهُ ليس مجبورًا عليها فهذا امرٌ يسلّم فيهِ كل اصحاب الاديان والعقلاء. ولكن كيف يخرج ذلك عن قضاء الله وحكمهِ. فان لم يقضِ الله بكلّ ذلك ويدبّرهُ بعنايتهِ الصمدانيَّة لما استطاع الانسان ان يأتي بعمل من هذه الاعمال

ونلوم ثالثًا صاحب الهلال على ما هو افظع ممَّا تقدَّم وهو انهُ انكر المسؤوليَّة على الانسان في امور كثيرة مع انّ تبعاتها تلزمهُ لا محالة فقال سامحهُ الله في ما يرثهُ الولد من والديهِ (ص٦٥٣) انّ الولد « منذ ولادتهِ قد قُدّر لهُ ان يكون كما تقتضيهِ الخصال التي ورثها من والديهِ. . . وهو منذ وُلد من ذينك الوالدين مقدَّر لهُ ان يكون كذلك وعبثًا يحاول تغيير خلقه »

ثمَّ زاد في الطين بلَّة حيث كتب: « ومثل ذلك يقال في من ورث من والديهِ الطمع او الشره او الكذب مع ضعف الارادة فشبَّ لصًّا او مقامرًا او سكيرًا او قاتلًا فانَّ حالهُ تكون مقدَّرة منذ ولادتهِ ولا ذنب لهُ في هذه ولا فضل لهُ في تلك (يريد الذكاء والنشاط وعلوّ الهمَّة) »

وكذلك نسب (ص٦٥٤) الى الاقليم امورًا كثيرة زعم انَّ ليس تبعةٌ للانسان فيها لانَّ الانسان صنيعة الاقليم

فيا لله من هذه الاقوال الفاسدة التي تفتح بابًا لكلّ المظالم وتبطل كل السنن الالهية والشرائع البشريَّة فترى ايّ قاتل لا يمكنهُ ان يدَّعي بانهُ كان مدفوعًا الى القتل

« لا ذنب لهُ فيهِ » لانهُ اكتسب ذلك بالوراثة من والديهِ او لتأثير الاقليم في اعصابه ودماغهِ . أفيرضى صاحب الهلال بمثل هذا العذر ان ضربهُ (لا سمح الله) رجل بمديةٍ في صدرهِ ؟ ولو اتخذ حكمًا فهل يا تُرى يُطلق سبيل من يذكي نفسهُ بهذه الحجج ؟

هذا ولا ننكر انَّ للوراثة والمزاج والاقليم والتربية بعضَ التأثير في الاعمال ولكن هيهات ان يكون ذلك كافيًا لدفع التبعات ما لم يكن صاحبها فقد الشعور واختلَّ عقلهُ . اما في غير هذه الحال فلا

ثمَّ انَّ للوراثة والمزاج والاقليم والتربية ما يبطل فعلها السيّئ وقد جعل الله دواء لهذه الادواء فانَّ في نعمة الله وحبهِ تعالى وفي اقامة الصلاة والخوف من العقاب الزمنيّ والابدي والرجاء في الثواب والرجوع الى حكم العقل وصرف النظر الى الهمم العالية ما يغلب هذه الاميال ولو افترضنا ان الانسان اكتسبها بالوراثة والمزاج والاقليم . والدليل على ذلك أننا نرى اولادًا صالحين وُلدوا من آباء اشرار ويُعكس . ومن امثال العامّة « الوردة خلّفت شوكة والشوكة خلّفت وردة » وكذلك نرى في اقليم واحد رجالًا مختلفي الطباع منهم اصحاب فضل وغيرهم سفلة ارذال . وكذا قل عن المزاج والتربية

ولو تروّى كاتب هذه الاقوال قبل تسطيرها لرأى انهـا تنفي ما كتبهُ قبل ذلك حيث قال :

« واعمال الارادة ابعد سائر الحوادث الانسانية عن حكم التقدير . لانهُ كيف اذا سرق احدهم الا من آخر ان يكون عملهُ مقدَّرًا منذ الازل او اذا قتل احدٌ احدًا او ارتكب جريمة اخرى من اي نوع او انغمس في الرذائل كالسكر او القمار او الفحشاء او انقطع الى النضائل . . . »

فهذا القول ينقض تزًّا ما قالهُ صاحب الهلال سابقًا عن الوراثة والاقليم كأن الوراثة والاقليم ينزعان عن الانسان حريّتهُ

وفي مقالة الهلال عن القضاء والقدر مغامز اخرى لا يسعنا اليوم تفنيدها اضيق المكان . وفي ما كتبنا شاهد صريح على تفريط كاتب هذه النبذة . ارشدنا الله واياهُ الى القول الحقّ